وأتجهت الجيوش العباسية لمتابعة حرب الخليفة مروان بن محمد بقيادة عبد الله بن علي عم السفّاح . فالتقت به على نهر الزاب شمالي العراق . وهزمته وجيشه هزيمةً ساحقة . وفرّ مروان الى مصر . ولقي حتفه في بُوصير من مدن الصعيد على يد الجنود التي بقيت تلاحقه أواخر سنة ١٣٢ للهجرة .

ولم يطمئن أبو العباس السفّاح الى مقامه في الكوفة . دار العلويين من قديم . فتحوّل عنها الى معسكر الخراسانيين . ثم فارقه الى الحيرة . وأخذ في بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه . وأغرى ابا مسلم بأبي سَلمة الخلّال . فدسّ اليه من قتله ، لأن أبا سلمة كانت نيّتُه معقودةً على استبعاد العباسيين . حتى إنه أخفى أمر أبي العباس السفّاح وأهله حين قدموا الى الكوفة . بل عزلهم عزلاً تاماً عن جند خرسان(٧) .

ظفر العباسيون واتباعهم بالحكم بعد فتكهم بالبيت الأموي . وقد شارك فريق من الشعراء في حرب بني أمية وتأليب الناس عليهم واستئصال شأفتهم . منهم سُديف بن ميمون . قال ابن الطقطقا عن الخليفة أبي العباس السفاح ، « كان في بعض أيامه جالساً في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك . وقد أكرمه السفّاح . فدخل عليه سُديف الشاعر . فأنشده :

لا يغرّنْك ما ترى من رجالٍ إنّ تحتَ الضلوع داءً دويّا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فالتفت سليمان وقال ، قتلتني ياشيخ ! ودخل السفّاح . وأخذ سليمان فقتل »(٨) وبالغ بنو العباس في تعقّب الأمويين وقتلهم واستصفاء أموالهم . سخطاً عليهم . وانتقاماً منهم . وكان هذا العمل الصارم دافعاً لعبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك الى الهرب واللجوء الى الأندلس واقامة دولة أموية جديدة هناك .

ولا بدّ من الاشارة هنا الى مسألة هويّة الدولة العباسية . أهي عربية أم أعجمية ؟ قال الجاحظ ، « إن دولة بني العباس أعجمية خراسانية . ودولة بني مروان أموية عربية(٩) » . وقال المسعودي في معرض حديثه عن قيام الدولة العباسية وزوال

قيام الدولة العباسية :

ضعفت الدولة الأموية في أعوامها الاخيرة . وأصبحت لا تقوى على الوقوف أمام القوى المناوئة لها . وكان لفريق من العرب الحانقين على بني أمية . ومن الكارهين لحكمهم من غير العرب . الدورُ الكبيرُ في انهيارها . وزوال سلطتها . وانقضاء عهدها . الى جانب الاضطراب السياسي والاجتماعي والاقتصادي في عهد أخر خلفائها مروان بن محمد .

كان بنو العباس . وهم فرعٌ من بني هاشم . يرون أنَّ الخلافة حقُّهم المسلوب . وتراثُهم المنهوب . فأخذوا يطالبون بها . واستطاعوا بذكائهم وفطنة رجالهم أن يستغلُّوا الكراهية على بني أمية للوصول الى هدفهم المنشود وتمكَّنوا بدهائهم وكياستهم أن يستميلوا العلويين الذين كانوا يطالبون بالخلافة أيضاً ويرون أنفسهم أحقَّ من غيرهم بالحكم . وقدروا أن يقنعوا كبار رجالهم بأن دعوتهم تهدف الى احقاق الحقّ وتسليم الأمر الى « الرضا من آل بيت محمد » . وكلمة الرضا ليست محددة .

وكان في خراسان اثنا عشر داعياً يعملون على هدم كيان بني امية . واقامة سلطان هاشمي . وهم على اتصال بالمركز في الكوفة . وكان الموجِّهُ للدعوة في باديء الأمر أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذي اضطر أن يلجأ الى بني عمِّه من آل العباس الذين يُقيمون في « الحُميمة » من أرض فلسطين جنوب البحر الميت . وكان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس اكبر رجال آل العباس أنذاك . فالتقيا . واتفقا على العمل سوية لازالة حكم الأمويين وتسلُّم السلطة منهم . واقامة دولة جديدة . ولما احسَّ أبو هاشم بدنوِّ أجله ولم يكن له عقب أوصى لمحمد بن علي بن عبد الله بالامامة من بعده . وأعلم خاصَّته بهذا الأمر . وكان هذا في سنة ٨٧ أو ٩٨ للهجرة . وهكذا أصبح محمد بن علي الشخصية الأولى من بني العباس تتولَّى زعامة الحركة المضادة لبني أمية وتشرف على ادارة الفئة المعارضة للحكم في دمشق . وآثر أن تبقى الدعوة سريَّة . واختار سبعين رجلاً يأتمرون بأمر الدعاة الاثني عشر(١) . يعملون في الخفاء على نشر الدعوة العباسية . وكانوا

يجوبون البلاد متظاهرين بالاتجار . أو طلب العلم . أو التطبيب . أو السياحة . وهم يبثُّون أفكارهم بين الناس . ويكثرون مآزريهم ومؤيديهم في الثورة على بني أمية وازاحتهم عن الحكم وابعادهم عن السلطة .

اتخذ محمد بن علي (وهو والد ابراهيم الإمام . وأبي العباس السفَّاح . وأبي جعفر المنصور) مكانين لنشر الدعوة . أحدهما في الكوفة . والثاني في خراسان . وزاد الإقبال على هذه الدعوة ولا سيما في خراسان التي أصبحت آنذاك مركزاً بارزاً لقيادة المعارضة والتمرُّد على سلطة بني أمية .

ولما توفي محمد بن علي سنة ١٢٥ للهجرة تولّى الأمر من بعده ابنه ابراهيم وصار هو الامام . وسار على درب ابيه في العمل السّري تحضيراً للاجهاز على الدولة الأموية . واعتمد على رجل ذكي هو أبو سَلَمة الخلّال . وجعله كبيراً للدعاة في الكوفة . أما خراسان فجعل عليها أبا مُسلم الخُراسانيّ الذي أصبح فيما بعد القائد للجيوش الزاحفة على معاقل الامويين . وكان أبو مسلم « شديد الاخلاص للعباسيين . مسرفاً في خدمتهم . كثير الدهاء . واسع الحيلة . خبيراً بما يقتضي عمله من الحزم والقسوة . فلا تعرف الرحمة قلبه . ولا يتناول الأمور الا بالحزم والبأس الشديد »(٢)

ولما اشتدّ أزر العباسيين . وأصبحت دعوتهم ذات قاعدة قويّة قادرة على تحمل أعباء الثورة . طلب ابراهيم الامام من داعيه أبي مسلم الخراساني أن يعلن الدعوة صراحة وجهراً بين الخلائق . فاستجاب له . وكان ذلك سنة ١٢٨ للهجرة . ولبس السواد الذي اتخذه العباسيون شعاراً لهم تيُمنا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي دخل مكة فاتحاً تحت راية سوداء .

وقد أحسّ نصر بن سيّار عامل الأمويين في خراسان بالخطر . واستصرخ الخليفة . وصوّر في أبيات من نظمه الحالة المأساوية التي تنتظر الأمويين اذا لم يهبُّوا لإخماد الجذوة المتّقدة التي ستحرقهم وتحيلهم الى هباء منثور(٣) :

الدولة الأموية ، « سقطت قيادات العرب . وزالت رياستها . وذهبت مراتبها[٢] » . إن هذين القولين وأمثالهما فيهما شيء من التهويل . ونترك الجواب عليهما للدكتور عبد العزيز الدوري في حديثه عن نشأة الدولة العباسية بعد عرضه لأقوال السابقين ، ولعل هذه الاقوال صحيحة في أساسها . لكنها متطرفة على ما أرى . فمن المبالغة أن نقول بأن سلطان العرب ينتهي بسقوط الأمويين . فالخلفاء العباسيون كانوا عرباً هاشميين . وكانوا يعتزون بنسبهم . ويعتبرونه أكبر مناقبهم . ومع انهم قربوا الفرس . إلاّ أنهم سيطروا عليهم فتكلوا بهم حين شعروا بتعاظم نفوذهم . كما فعل أبو العباس السفّاح بأبي سلمة الخلّال . والمنصور بأبي مسلم الخراساني . والرشيد بالبرامكة . والمأمون بالفضل بن سهل . وقد أعطيت بعض المناصب الهامة كالوزارة الى الفرس . ولكن عدداً كبيراً من الولاة والقواد كانوا عرباً في العصر العباسي الأول . وانّ كثيراً من اصحاب المناصب في الدولة الجديدة كانوا عرباً[٣] .

نظام الادارة :

لم يتخلّ العباسيون كلياً عن الأنظمة الادارية المعمول بها في دولة بني أمية بل أخذوها وطوّروها وزادوا عليها بعد اختلاطهم بأمم أخرى . وتمازجهم مع أجناس كثيرة غير عربية . فمن الأمور البارزة التي أوجدوها وجعلوها ركيزة قوية في ادارة الدولة هو نظام الوزارة . وأعطوا الوزير صلاحيات واسعة في الاشراف على الشؤون العامة في الجهاز الاداري . وكان أول وزير لهم حفص بن سليمان الذي عرف بأبي سلمة الخلّال .

وهناك وظائف أخرى عُنوا بها . منها وظيفة الحاجب التي تتولّى أمر الدخول على الخليفة . ووظيفة الكاتب الذي يتولّى أمور الكتابة عن الخليفة . وكانت لهذه الوظيفية تقاليد وآداب يُتقنها العاملون فيها . أما القُضاة فكانوا عُدولاً . يمتازون بالأمانة والنزاهة والصدق . ينظرون في أمور الناس ومشكلاتهم الدينية والدنيوية . وكانت كلمتهم مسموعة عند الخلفاء وأولي الشأن في الدولة . وأعطى الخلفاء الأوائل

عناية فائقة بالجيش . وعينوا له قُوّاداً ماهرين في التدريب والتعبئة والقتال . فهو الوسيلة الوحيدة لحماية الدولة وحفظ كيانها ومحاربة المتمردين أو الخارجين عليها . وقد أطنب الطبري في وصف جيش أبي جعفر المنصور وحسن تنظيمه واختيار قواده .

ونظّم العباسيون سجلاتِ الدواوين . ورتّبوها ترتيباً دقيقاً . ووزّعوها حسب الاختصاصات . ووكّلوا عليها موظفين ماهرين . عُرفوا بأصحاب الدواوين . مثل الخراج والخاتم والنفقات والصدقات والبريد والجند والاقطاع والمصادرة والشكاوى والضرائب وأشركوا غير العرب في هذه الوظائف واستفادوا من خبراتهم وإمكاناتهم في الأعمال الادارية والفنية .

ورتّب العباسيون أيضاً الأمور المالية كي يجابهوا متطلبات الدولة الجديدة . فأحدثوا ضرائب جديدةً تُضاف الى الضرائب السابقة التي كان الأمويون يتقاضونها مثل ضريبة المصائد والسفن . وضريبة أخماس المعادن . وضرائب المواريث والتركات .

بناء بغداد :

تركّزتْ قواعد الدولة العباسية . وثبتتْ أركانُها . بعد تولّي أبي جعفر المنصور الخلافة سنة ١٣٦ للهجرة . وهو يُعد المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التي أصبحت بعد فترة قصيرة ذات شأن خطير ودور كبير في ادارة رقعة شاسعة من العالم الاسلامي ترفرفُ عليها رايةُ القوة والعظمة . وتظللُها معالم الحضارة والمدنية . وفي عهد هذا الخليفة أُنشئت بغداد بعد اختيار دقيق . واستشارة موفقة بالمهندسين والعارفين بالاماكن الجيدة والمواقع الرصينة الصالحة للاتصال بأطراف الدولة المترامية الأطراف من كلّ الجهات .

وضع الخليفة المنصور أولَ لَبِنةٍ للمدينة الجديدة بيده سنة ١٤٥ للهجرة قائلاً : « بسم الله . والحمد لله . الأرضُ لله يورثها مَنْ يشاء من عباده والعاقبةُ للمتّقين(١٣) » . وظلّ البناءُ قائماً بها حتى سنة ١٤٩ للهجرة . وجعلها مدورةً . وبنى

ونالت بغداد ثناءً عطراً من المؤرخين . والرحّالة . والبلدانيين . وكتّاب التراجم . وأجمعوا على القول : « إنها أمّ الدنيا . وسيّدة البلاد . وجنّة الأرض . ومجمع المحاسن والطيبات . ومعدنُ الظرائف واللطائف . ليس لها نظيرٌ في مشارق الأرض ومغاربها سعةً وكبراً وعمارةً . وكثرة مياه . وصحة هواء . ولأنه سكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكُور . وانتقل اليها من جميع البلدان القاصية والدانية . وآثرها جميعُ أهل الآفاق على أوطانهم . فليس من أهل بلدٍ الا ولهم فيها محلّة ومتْجر . فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا . ثم يجري في حافتيها النهران الأعظمان ، دجلة والفرات . فتأتيها التجارات والمير براً وبحراً بأيسر السعي . حتى تكامل بها كلُّ متْجر يحمل من المشرق والمغرب . حتى كأنما سيقتْ إليها خيرات الأرض . وجُمعت فيها ذخائرُ الدنيا . وتكاملت بها بركاتُ العالم(٣٧) » .

وقد أجاد أحد الشعراء في ذكر فضائلها من قصيدة(٣٨) :

فالقومُ منها في روضةٍ أنُفٍ ... أشرفَ غِبَّ القطارِ زاهرُها
من غُرّة العيش في بُلَهْنِيَةٍ ... لو أنّ دنيا يدومُ غابرُها
دارُ ملوكٍ قرّتْ أسرّتُها ... فيها وقرّتْ بهم منابرُها
أهلُ القرى والندى ، وأندية ... لمجدٍ إذا عُدّتْ مفاخرُها

ومن طريف ما يروى أن الرشيد كان بالرّقة . وكان يستحسنها ويستطيبها . فيقيم بها . وطال المقام بها مرّة . فقالت زبيدةُ للشعراء ، مَنْ وصف مدينة السلام وطيبَها في أبياتٍ يشوّق أميرَ المؤمنين إليها أغنيتُه . فقال في ذلك جماعةٌ . منهم منصور النمريّ قال أبياتاً أوّلها ،

ماذا ببغداد مِنْ طيبِ الأفانين ... ومن منازهٍ للدّنيا وللدّين
تُحيي الرّياحُ بها المرضى اذا نَسَمتْ ... وجوّشتْ بينَ أغصانِ الرّياحين(٣٩)

قصره في وسطها . وأخذتْ تنمو يوماً بعد آخر حتى « أصبحتْ أهمّ مدينةٍ في العالم العربي . إذ بُنيتْ بها مئاتُ المساجد وعشرات القصور الفخمة . وتكاثر بها التجار والصنّاع . وكان لكلّ طائفةٍ منهم شارعٌ خاص أو سوق خاصة . فهذا سوق العطارين . وذاك سوق البزازين . وهذا سوق الصيارفة مستبدلي النقود . وذاكَ سوق الورّاقين . وهذا سوق بائعي الحُلي والطرف المعدنية . وذاكَ سوق الرقيق المكتظ بالجواري من كلّ جنس . وأمّها المغنون والمغنيات . ونزلها الأدباء والعلماء من كلّ صنفٍ وعلى كل لونٍ . فزخرت بالحياة . تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمتنزّهات وميادين اللعب بالصولجان وغيره . كما تزينها القوارب التي كانت تتلألأ على صفحات دجلة بأشكالها المتنوعة(٣) »

وكانت بغداد في بادىء أمرها تضمُّ الجانب الغربي الذي يُعرف بالكرخ . ولما ضاقت بسكانها تطلّع المنصور الى الجانب الشرقي لنهر دجلة . وبنى فيها قصراً لابنه المهدي . وثكنات للجيش تتخللها الأشجار والبساتين . وأخذتْ تنمو وتتسع حتى أصبحتْ لاتقل جمالاً وتنسيقاً عن الجانب الآخر وسميت بالرُصافة . ووصل المنصور بين الشطرين بعده جسور(٤) . يُذكّرُنا بواحدٍ منها عليُّ بنُ الجهم في قوله(٥) :

عيونُ المها بينَ الرُصافةِ والجسر جلبن الهوى مِنْ حيثُ أدري ولا أدري
أعدنَ لِيَ الشوقَ القديمَ ولم أكنْ سلوتُ ولكنْ زدنَ جمراً على جمرِ

وقد أشاد الكثيرون بجمال بغداد . وبهاء مناظرها . وروعة مبانيها . قال الجاحظ : « لم أرَ مدينةً قطُّ أرفع سمكاً . ولا أجود استدارةً . ولا أوسعَ أبواباً . ولا أبهى عقوداً . ولا أحكمَ سوراً وفصيلاً من مدينة المنصور ... وأنشد :

ياحبّذا بغدادُ من بلدةٍ ياليتني أوطنتُ بغدادا
لم ترْعني من مثلها بلدةٌ أطيبتُ إصداراً وإيرادا
إنْ ردّني اللهُ إلى أهلها لم أتزوّدْ للنوى زادا(٦) »

فوقعت أبيات النمري من بين جميع ما قالوا في قلب الرشيد بحيث أسرع في الانحدار الى بغداد . فوهبتْ زبيدةُ للنمري جوهرةً . ثم دسّتْ اليه من اشتراها بثلاث مئة ألف درهم(٣٠) .

ان بغداد . حاضرة الخلفاء العباسيين . بقيت أغنيةً في فم الشعراء . وقد أحسن أبو سعد محمد بن علي بن محمد بن خلف النيرماني في قوله:(٣١)

فقد طفتُ في شرقِ البلادِ وغربِها وسيّرتُ رحْلي بينها وركابيا
فلم أرَ فيها مثلَ بغدادَ منزلاً ولم أرَ فيها مثلَ دجلةَ وادِيا
ولا مثلَ أهليها أرقَّ شمائلاً وأعذبَ ألفاظاً وأحلى معانيا

ثقافة العصر :

ان تقارب الامم واختلاطها وامتزاجها تؤدي دائماً الى تبادل الآراء والأفكار والخبرات . وتساعد على تطوير الحياة الفكرية ورقيها وتقدمها . وقد فتحت الدولة العباسية منذ أيامها الأولى الأبواب لجميع الأقوام والأجناس بالاشتراك في عملية تطوير الفكر وتنشيطه . متخذةً اللغة العربيةَ ، لغة القرآن الكريم . والحديث الشريف . والتراث العربي القديم . أساساً في التعبير والتدوين ونقل المعرفة . ولا بدّ من الاشارة هنا إلى أهم الروافد التي اتحدت وانصهرت في كيان عربي إسلامي موحد بلغ القمة في العصر العباسي الأول الذي عُرف عند الدارسين بالعصر الذهبي .

استقى العباسيون الثقافة من عدّة أوعية . وطلبوها من منافذ كثيرة . أضافوها إلى الثقافة الاسلامية . فإنهم أخذوا من الثقافة اليونانية شيئاً كثيراً . وكان ذلك عن طريق المدن التي كثر فيها عنصر الروم . أمثال جُنْديسابور القريبة من البصرة . وحرّان والرُّها ونصيبين وأنطاكية والإسكندرية . ويعد الخليفة المنصور الرائد الأول في طلب العلوم والمعارف . وهو أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات الأخرى . وممن لمع اسمه في عهده بترجمة كتب الطب اليوناني أبو يحيى البطريق (ت ٨٠٠ هـ) إذ عُني بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس(٣٢) . واقتفى أثرَ أبي

جعفر المنصور الخليفةُ المشهور هارون الرشيد الذي أنشأ دارَ الحكمة وجعلَ فيها طائفةً من المترجمين . ومن أشهرهم يوحنا بن ماسويه ، وجبريل بن بختيشوع .(٣٣)

وبلغت خلافة المأمون القمة في البحث عن المعرفة واجتذاب المترجمين وايوائهم والانفاق عليهم قال عنه صاعد بن أحمد الأندلسي[٣٤] . « لما أفضت الخلافة الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور تمّم مابدأ به جدُّه المنصور . فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، واستخرجه من معادنه . بفضل همّته الشريفة . وقوّة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم ، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة . وسألهم صلته بما لديهم من كُتب الفلاسفة . فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب أفلاطون . وأرسطو طاليس . وأبقراط . وجالينوس . وأقليدس . وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستخار مهرة التراجمة . وكلّفهم إحكام ترجمتها . فترجمتْ له على غاية ما أمكن . ثم حضّ الناس على قراءتها . ورغّبهم في تعليمها . فنفقت سوقُ العلم في زمانه . وقامتْ دولةُ الحكمة في عصره . وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من احضائه لمنتحليها واختصاصه لمقلّديها . فكان يخلو بهم . ويأنسُ بمناظرتهم . ويلتذُّ بمذاكرتهم . فينالون عنده المنزلة الرفيعة والمراتب السنية . وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلّمين وأهل اللغة والاخبار والمعرفة بالشعر والنسب . فاتقنَ جماعةً من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة . وسنّوا لمن بعدهم منهاج الطب ومهّدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تُضاهي الدولة الروميّة أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها » . وهكذا كان المأمون جاداً في معرفة ماعند اليونان من علوم . وقد أفلح في مسعاه حينما أرسل رجالاً للبحث عن الذخائر القيمة وقد « جاؤوه بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثما طيقي والطب »[٣٥]

إنّ الخلفاء العباسيين اتجهوا الى الناحية العلمية وكرّسوا جهودهم لها . لأنها تغذّي العقل . أما الناحية الأدبية التي تغذّي العاطفة فهي مرتبطة بالبيئة التي تنبتُ فيها . فانّ الأدب ظل المجتمع . ولكلّ بيئة تقاليدها وأذواقُها . ولذلك لانجد كتاباً في الأدب نُقل الى العربية من اليونانية على وفرة ماكان لليونانيين من ذلك[٣٦]